الخبرة الدينية في الفلسفة البراكماتية عند الفيلسوف الأمريكي وليم جيمس (١٨٤٢-١٩١٠م)

د. أخلاص جواد علي مير
المديرية العامة لتربية بغداد الرصافة / الثانية
Smtri-iraq.com

الملخص:

كان البحث قد بدأ بتمهيد، ومطلبين : التمهيد تحدث عن ثلاثة مفهومات في النواحي اللغوية، والاصطلاحية، وهي : الخبرة، والدين، والفلسفة البراكماتية. وعند توضيح ذلك اعتمد المطلبين الآخرين، وهما بواعث الخبرة عند وليم جيمس، ودواعيها، والثاني : المبادئ العامة للفلسفة البراكماتية، ومقوماتها عند وليم جيمس، وانتهى البحث في خاتمة استقصت أهم النتائج التي توصلت اليها الباحثة، بعد أن عرضت للبحث قبل التمهيد مقدمة تناولت أهم ما يمكن أن تفضي اليه مسائل بحثها في فلسفة وليم جيمس.

الكلمات المفتاحية : (الخبرة الدينية، الفلسفة الأمريكية، وليم جيمس، الدين).

Religious Experience in Pragmatic Philosophy in the American Philosopher William James (1842-1910)

Dr. Ikhlas Jawads Ali Mer
General Directorate of Education, Baghdad, Rusafa / 2

Abstract :

The research begins with preface and two enquiries : the preface discusses about three concepts in linguistics idiomatic which are : the experience , religion , Pragmatic Philosophy .When explaining that the two other enquiries are introduced: the experience motives in William James and its requirements .The second enquiry :The general principles of Pragmatic Philosophy and its components in William James .The research ends with conclusion that investigate the most important results that the researcher reached after it introduced the research before the preface an introduction that discusses the most important issues of her research questions in in William James philosophy

Key words (Religious Experience , American Philosophy ,William James , Religion)

المقدمة

في بحثنا عن الخبرة الدينية في الفلسفة البركماتية عند الفيلسوف الأمريكي وليم جيمس. حاولنا أنْ نلتمس على وفق ما عرضنا ميادين فكريّة عدّة في تمهيد، ومطلبين، وخاتمة. في التمهيد عَرّفنا بثلاثة مفهومات : الأولى الخبرة في اللّغة والإدراك البراكماتي، وحاولنا المقاربة بَيْنَ المسارين اللّغوي والفلسفيّ، لتقاربهما احياناً في الدلالة والمعنى. إذ الخبرة العلم، والمدرك البراكماتي، سار على منهجيّة مفهومة مع التباين في العديد من المضامين؛ لأَنّ الخبرة عند وليم جيمس اعتمدت التجربة في كلّ ما هو موجود في الحياة. في حين أنّ التجربة قد تكون اكثر صدقاً في المختبرات الطبيعية، لمعرفة صدق النتائج. ناهيك عن ربطه لتلك الخبرة بمجموعة من الأمور ركز عليها البحث والمفهوم الآخر : هو الدين الذي، وضحناه في اللّغة، في كونه العادة، والحال والسيرة، والسياسة، والرأيّ، والحكم، والطاعة، والجزاء، ولكنَّه عند وليم جيمس : ليس ديناً موجباً به، بَلْ هو دين شخصي بسيط، وهو مجرد تجربة، وإنَّ الله شخصيّة متناهية محدودة بالزمان والمكان، ولا نحتاج إلى إعادة ما ذكرناه.

والأمر الثالث من المفهومات، هو البراكماتية. وقد عرفنا بها، نشأة، وتطوّراً بشيء سردي من الإطالة. أمَّا المطلبان الأوّل، والثاني : فقد قررنا في الأوّل : بواعث الخبرة الدينية عند وليم جيمس، ودواعيها، معززين فكرتها إلى واقع اجتماعي محض، في سعي المهاجرين إلى الأرض الأمريكية الجديدة في عصره، وأحوال شخصية، املتها عليه أسرته وما كانت عليه من أمور أفرزتها سلوكياتها. وما أنعكس على أسباب نشوء الفلسفة البراكماتية عنده. والثاني المبادئ العامة للفلسفة البراكماتية، ومقوماتها عند وليام جيمس، وقد أفضنا القول فيها بما لا يحتاج إلى

التكرار، ثمَّ كانت الخاتمة التي استدرجنا فيها جملة من النتائج التي توصلنا إليها عَبْرَ طرحنا للأفكار التي رأينا أنّنا قد تأملنا القول فيها. ثُمَّ قائمة المصادر والمراجع ولا حولَ ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

التمهيد

مفهومات الخبرة، والدين، والبراكماتية في المضامين اللّغويّة والفلسفيّة

إنَّ الدراسة في تلك المفهومات تفضي إلى القول : إنَّ وليام جيمس كان من علماء النفس، والفلاسفة الأمريكان في الزمن الحاضر بلغ من عرضٍ لآرائه منزلة رفيعة في مجالات ما طرحه، إذ اهتم الناس الأمريكان بعامة في أفكاره الفلسفية وبخاصة ما قرّره عن الفلسفة البراكماتية المعاصرة، إذ رفض مسألة القضايا العقلية، والتنظيميّة التي اعتمدت الدين، ودارت حولهُ في المحاباة للمقاربة التجريبية، للخبرة الدينية، فبدت مهمته، تبنى على أية طريقة يمكن للتجربة الدينية، أنْ تُسوّغ المعتقدات الدينية، على الرغم من أنه، قد وظف الديانة المسيحية، في طرحه لآرائه، لأنّه أهتم بالدين، بشروط فردية ويمكن القول : إنَّ اهتماماته فُهمَتْ بشكل جلي وواضح على ضوء اعتقاده، أنَّ أكثر المقاربات المثمرة للدين هي التجربة وحدها. لذلك كانت مسوغاته البراكماتية للاعتقاد الديني أَغْلَبُها عُدّت موضع اعتراض في الجانبين الوجوديّ، والأخلاقي، لكون العديد من النقاد رأوا أنَّ اعتبارات جيمس للحقائق الدينية، وما رآه لها من تفسيرات، ليست موضوعيّة (البطل، بلا . ت ، ص٢ وما بعدها)، ومِنْ أجل ذلك، وجدت الباحثة، أن من الضرورة تحديد مفهومات الخبرة، والدين، والبراكماتية في مسارات البحث اللغوية، وما تعرضه من أفكار فلسفيّة.

فالخبرة في أصل وضعها اللغويّ من خبر : إذ الخاء، والباء والراء أصلان : الأول منهما : العلم، والثاني : يفضي معناه إلى اللين، والرخاوة، والغرز في

الأرض. فالمعنى الأول مقصودنا، وهو الخُبْر : العِلْمُ بالشيء، فنقول : لي بفلانٍ خِبرةُ، وخُبْرٌ، والله تعالى : الخبير : أي العِالم بكلّ شيءٍ، وعليه قوله تعالى ((**وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**)) (فاطر : ١٤).

وجمعه في الأصل الثاني الخَبْراء، وهي الأرض اللّينة(هارون، (لا.ت)، ص٢٣٩/خبر). والخُبْرُ : هو العِلْمُ بالأشياء المَعْلُومَة مِن جهة الخَبَر، فيما يُراد بمضمون إصطلاح الخبْرةِ فتقول: وخَبَرْتُهُ خُبْراً، وخِبْرَةً، وأخبرْت : أعلمتُ بما حصل لي من الخَبَرْ، وقيل : الخِبْرَةُ : المَعْرِفة ببواطِن الأمر، وفي دلالة قوله سبحانه : ((**وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**)) (آل عمران : ١٥٣)، أي عالمٌ بأخبار أعمالكم، وقيل عالمٌ ببواطن اموركم(داوودي، ١٤٢٢هـ/٢٠١١م، ص٢٧٣/خبر). : فَخبِرَ الشيء، خُبْراً، وخُبْرَةً، ومَخْبَرَةً : بلاهُ وامتحنه، وعَرَفَ خَبرَهُ على حقيقته(مدكور، ١٩٨٩م، ص١٨٤) ، وتلك المعاني اللغوية للخبرة، قد لا تجدْ صدىً لها في تعريف البراكماتية التي تحدّدها من الناحية الفلسفية لمدلولاتها ((بأنَّها موقف إشكالي يعترض الكائن الحيّ، ويَبْعثُ فيه رغبة البحث عن حَلّ يسترد به تكيفه مع الوجود من حوله، لذلك احتلت فكرة الخبرة عند (جيمس) مركزاً مهماً في منطلقاته الفلسفيّة إذ اقترح منهجه (التجربة الأصلية) في تصوّره للواقع على أسس أنّه (عالم الخبرة الخاصة)، فيما أسمّاه ((خامة العالم في إطار نظرته الواحدية للكون)) ولهذا عرّف الخبرة الخاصة بكونها ((تيار الحياة المباشر الذي يزود تفكرينا اللاّحق بالمادة)) فوسع فيما عرض مفهوم الخبرة لكي يشمل به نطاق السيكولوجية الدينية والأخلاقية، غير مناقشاته للاعتقاد، والإيمان، والخبرة الدينية من خلال مؤلفه ((تنوعات الخبرة الدينية)) (عوض ، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م، ص٦٧-٦٨)، فالجانب اللغوي للمفهوم في المعجمات يختلف اختلافاً جذيراً عن مدركات الخبرة عند جيمس المعاصر لأحوال مجتمعه

البروتستانتي المسيحي، غير الملتزم، والواقعي في سلوك ناسه، لأَنَّ الخبرة عند العرب قبل إسلامهم، وبعده تبنت الجوانب الاعتقاديّة، التي قد اقترنت بالمفهومات الغيبيّة بعد إسلامهم، وإنْ ارتبطت مدلولاتها، بواقع المعرفة للأشياء الملتمسة، من لين، ورخاوة للأشياء المرأيّة، والمغروسة في الأرض.

أمَّا الخبرة عند جيمس، فهي قد تبنت التجربة، إذ هي كلّ ما هو موجود في الحياة، إذ لا توجد أشياء عامة لأيّ تجربة عملية كانت أم اعتقادية هي موحدة، ومركبة، تشمل حتى الأشياء الطبيعية (natures) في كلّ الأشياء من ذوات الخبرة، فالتجربة هي (فقط اسم موحد لكلّ الطبيعة المعقولة (sensible natures)، بظهوره، ليس أي عنصر كوني من جهة كل الأشياء هي محدثة)) قال ((تجربتي هي ما أوافق حضوره لرأي)) وبمعنى آخر : ((تجربتي هي كل ما وافق العلاقة مع شيء ما، وارتبط به فشكّل نوعاً من التجربة والخبر، فتلك هي العناصر التي حظيت بشكلها في ذهنه، من دون أي مصلحة انتقائية، فالتجربة عنده فوضى عارمة، باهتمام وحيد يمنح توكيد وتأكيد نور، وظلّ، وجهة نظر معقولة، في العالم)) (البطل ، بلا ت، ص٥) و (William, 1890, P.107) فالحياة في رأيه هي مجموعة من العادات، العلمية، والعاطفية والفكرية، قد نظمت منهجياً من أجل سعادة الناس، ومحنها وبشكل لا يقاوم ما قدر لهم، ومهما يمكن أنْ يكون لذلك ينبغي أن تشكل عادات جديدة، على وفق ثلاث مراحل:

الأولى : ينبغي أنْ تكون هناك حاجة أو ميل، ورغبته شعورية في احتياج الفرد للمعلومات حول أساليب تُعلّم كيفية الحفاظ على تلك العادات، فمثلاً تُعلّم كيف يمكن للمرء أن يقرأ ويكتب، أو يحضر دروساً فيما يرغب تعلمه، بعدها يعرف، ويكتشف طرائق الآخرين، كيف طوروا رغباتهم، وعاداتهم وفي المرحلة الأخيرة يكرر

ببساطة، وعي، تمرينات، أو التماس واقعي لما يقرا، ويتحدث به، حتى تمشي الأفعال التي يرغبها عادات معتمدة وعاديّة ملتمسه بالتطبيق(البطل ، بلا ت، ص٥) و (David, 1997, P.484). وإذا كانت المعرفة تأتي عن سبل العقل، وما يطلبه، فلذلك بنيت على مستويين : الأول : معرفة تاتي بالتجربة المباشرة. ومعرفة عَبْرَ التفكير المجرُد. وقد دعا جيمس إلى ضرورة اعتماد المرء على المستوى الأول : أي ((معرفة المعرفة)) (Knowledge of acquaintance) بكونها حسية، بديهية، شاعرية، وعاطفية. فقال : ((أعرف اللون الأزرق عندما أراه))، وأحس بالوقت عندما أشعر بأنه يمر ..)) ولكن بالنسبة للطبيعة الداخلية لتلك الحقائق أو ما يفضي إلى ما هي عليه، لا يمكن القول أيّ شيءٍ مطلقاً. ولهذا رأي جيمس أن المستوى الأعلى للمعرفة هو ((المعرفة حول أي حال)) (Knowledge abut). وهي فكرية، مركزّة، وعلائقية لا يمكن أنْ تتصور تجريديّاً، وهي موضوعيّة، وغير عاطفية إذ قال جيمس ((عندما نعلم عن ذلك يمكننا أنْ نفعل أكثر من مجرد امتلاكها؛ بأن نفكر في علاقاتها لإخضاعها إلى أنواع من إشكالات المعالجات والأعمال التي يهيئها تفكيرنا عبر المشاعر والأحاسيس التي نُلّم بها حول الأشياء بتبني الأفكار التي نعرف بها ماهياتها)).(William, 1890, P.221) .

ثانياً : الدين : فهو تجربة عند أيّ إنسان في رأي (جيمس)، لأنّه يتصل بالمشاعر والأفعال التي يُجد فيها نفسه، وهي تمثل موضوعات إلهية سواء أكان الإله ملموساً أم غيبياً، لأنّها في رأيه، تعتمد على ردّ فعل الإنسان تجاه حياته التي ينبغي أنْ تعني شيئاً قام به جليلاً يفاد منْه غيره، أو مُتزناً يثبت به ذاته، وقيمه، فهي عرض لسلوكه فالدين عند (وليام جيمس) ، ليس سماوياً، بل هو دين شخصي بسيط يتجسد من خلاله سلوك الإنسان التديني، فإذا ابتهج أو أسّرَ، يَجْب أنْ لا يظهر أمر ابتسامة

أو قرره، وإذا ما حزن، فلا يمكن أن تكون مُجرد صيحة، أو صرخة صاخبة، فـإذا ما عُدَّ الدين العالم بأسره مأسويّاً فيجب أنْ تكون تلك المأساوية بمفهوم التطهير للحزن الديني أينما وجد، وحيثما حلّ، فبذلك يسير مدركه على امتلاك ذاكرة مطهر الآثام.(William, 1958, P.31)، فطبيعة التجربة الدينية تمثل اتصالاً باطنياً، رأى فيها (جيمس) باقتراح أنَّ التصوف مثلاً فسّره بطرائق تمثل البوذية، وتجربة المؤمنين بالفلسفة المتعاليّة بالنسبة للظواهر المسيحية، مع أن البوذية، والمؤمنين بالفلسفة للظواهر المسيحية، لا يفترضون بشكل إيجابي الإله (God) في كونه يحمل معنى الشخص الخارق عن البشر.(William, 1958, P.31).

فما معنى الدين في مساراته، ودلالاته اللغوية، ومعانيه؟ فهو : من دين في أصل واحد، إليه ترجع جميع فروعه في الاشتقاق، وهو جنس، ونوع من الانقياد، والذُّل. إلَّا أنّه يعني : الطاعة فيقال : دان له يدين دِيناً، إذا أَصْحَبَ، وانقاد، وطاع، وقوم دِين : أي مَطِيعون منقادون وعليه قوله تعالى ((**مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ**)) (الفاتحة : ٣)،، أي يوم الحكم، وقال آخرون الحساب والجزاء(هارون ، بلا . ت ، مج٢، ص٣١٩-٣٢٠ / دين) . ، وهو في حقيقته وضعه اللّغوي من دين(داوودي، عدنان، تحقيق ، ١٤٢٢ه/٢٠١١م، ص٣٢٣ / دين) ، إذ دِنْتُ الرَّجُل : أخذتُ منه ديْناً. ونقل من الحقيقة إلى المجاز اللّغوي، فاستعير للشريعة، فقيل : الدّين يقال : للطاعة والجزاء، وهو كالملّة ولكَّنهُ يُقال اعتباراً بالطاعة والإنقياد للشريعة(تونسي، ٢٠٠٧، ص١٧٧) (درويش و الحصري، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص٣٧٠). والدين والملّة : متحدان بالذات اللّفظي في المعنى، ومختلفان في الاعتبار، لأنَّ الشريعة من حَيْثُ إنّها تطاع، تسمّى دْيناً، ومِنْ حيثُ إنّها تُجمع : تُسمى ملّة، ومِنْ حُيْثُ إنَّها يرجُع إليها تُمسى مذهباً. والفرق بَيْن الثلاثة : أَنَّ الدين منسوب إلى الله، والملَّة : منسوب إلى

الرسول، والمذهب منسوب إلى المجتهد(مدكور، ١٩٨٩م، ص٢٤١). والدِّين : اسم لجميع ما يُدّين به، والملّة، وجمعه أدْيان. وقد نُسب الدين إلى ياء النسبة، والتاء المدورة في أنه مصدر صناعيّ مولد في تطوّر معاصر للغة(نهر، ١٩٨٨-١٩٨٩م، ص٥٨)، فهناك عملية ترابط روحيّ، ومادّيّ فالمتصوفة يفترض أنْ يقابلون الألوهية بتعامل مع كلّ الموضوعات الإنسانية التي تحمي كلّ المصالح المثالية بالتجربة الدينية التي أحياناً يصعب تمييزها بالقرب بَيْنَ (الذات)، وبَيْنَ (الموضوعات)، لكونها تجربة للأمور أو الأشياء الأولى في سيل وجودها، والقوى التي تنحني وتحيط بها أمور أخرى، يمكن أنْ تقرن بها بصفة أُولى وأخيرة في طرائق الحقيقة (William, 1958, P.31). والتي رأى جيمس أن معنى التصوف الذي قد يبتعد في طريقة عرضه عن مفهوماته في سلوكيات متصوفة المسلمين، وطرائقهم الصّوفية التي قد لا تغني ما قدره الكثير من الباحثين المحدثين في كونه ((ظاهرة روحيّة عالمية تعتمد وتبنى على تصرف طائفة من الناس بسلوك مقرون بمعتقدات دينية إلهية كانت أم وضعية، ترجع في أصولها الجاهلية عند العرب إلى صُوْفة وهم قوم كانوا يخدمون الكعبة، ويفيضون بالحجاج من عرفات، فقيل لهم آل صوفان، وسُموا بذلك لأنَّهم تشبكوا بالكعبة، كتشبك الصّوف بما نبت عليه)) (داوودي، ١٤٢٢ه/٢٠١١م، ٤٩٩/صوف) و (الزمخشريّ، ١٩٨٥م، ج٢، ص٣٢ / صوف) . إذ رأى (جيمس) أنّه يقترح بضرورة الأخذ بعين الاعتبار بأشراك أربع خصائص أساسيّة تتمثل بـ(١) اللاوصفي (ineffability)، بأنْ تكون نوعياته من ذوي الخبرة المباشرة، لا يمكن نقلها للآخرين، أو الكشف عنها. (٢) والقيمة الفكرية (Noetic quality)، وترجع إلى أناس التمسوا حالات الاستبصار في أعماق روحية معمقة ومجرية : من قبل الفكر الاستطرادي، والمتابعة، بكشوف ومعاني وجلاء زوجي كامل. (٣) والتنقل

(Transiency)، أي الحالات الباطنة، لا يمكنها أن تسمو لمدد زمنية طويلة ألا في حالات قليلة ونادرة، في نصف ساعة، أو في الغالب، ساعة أو ساعتين، وتتلاشى حينها، وعند المسلمين يطلق على صاحبها (المجذوب). (٤) وتأثير الموضوع (Passivity of the Subject)، بأنّ يشعر المجذوب بأنه يملك إرادة فرديّة، قد يتم الغاؤها، بُلْ يشعر بأنه مقبوض عليه، ومحمول على قدرة خارجة عن إرادته موسومة بقوة قادرة عليها.(William, 1958, P.319)، وقد عرفه جيمس بأنه ((الشعور الباطني للامتداد في اتحاد، وتحرّر ليس له أي متسع فكري معين، ومحدد، بَلْ بأني من تلقا النفس للمجذوب أو المتصوف)).(William, 1958, P.425) ، وعليه رأى في تلك المحتويات الصّوفية توسعاً في حقل المعرفة الإنسانية بكثرة، لكونه يفتح مجالات جديدة للمعرفة بوصفه لها في منظور صادق، ويقيني. وربّما إنّ جيمس لم يتمعن بمسألة العلاقة الماديّة للمتصوفة بعامة ومسائل للطقوس الدينية، أو الشعائر، واندراج كلّ صاحب طريقة بالنسبة للمسلمين، بمريديه، أو معتمدي طريقته.

فجيمس يرى في أنّ التصوف مسراه بطريقتين : كونه حالة مميزة للوعي ومبعدة لحالة النظر الخارجية للناس بعامة. والثانية، كونه كشف للحقائق بطريقة خاصة.(William, 1958, P.427)، والأولى يتمثل بها في رأينا الإفراط في التمويه الروحي. والثانية، مسألة فردية، قد لا يدركها غير المتصوف، وصاحب طريقته(ثويني، ٢٠١٥، ص١٥ وما بعدها).

ثالثا : البراكماتية : فلسفة معاصرة أطلق عليها ((فلسفة الفلسفة الأمريكية (Lepragmatisme est la Philosophie de Laphilosophie amerciaine)، أو فلسفة العهد الذهبي (Lage d’or 1865-1940) .

قد ركزت على الفرد وأفعاله كلّها كما أنّها ارتبطت بفلسفة العلوم والأخـــلاق والقيم (Les Values).(Farer , 1950, P.10-14) ، والكلمة مشتقة مـــن اللفظـــة اليوناني (براغما Pragma)، أي : فعل (Pragmatiko) أو شيء غير، فهي يـــراد بها ((الفعل أو الأثر الذي يحدثه السلوك، أو الفكرة، أو الكثرة والاختلاف، أو مـــنهج الكثرة (Lepluralisme)، الموجود في الطبيعة، وذلك بطبيعة أمـــره يـــؤدي إلـــى الاختلاف، والتعدد الفكري المقرون بالآثار التي يُحـــدثها، وأصـــحابها قـــد دمجـــوا اللفظتين اليونانيتين فاستخدموا (البراكما) على الاشياء ليدلوا بها على معنى (براتين) اي الفعل، فكانت (البراكما) يُراد بها الأشياء المصنوعة المحدثة للأثر عـــن طريـــق التجربة، وأول من استخدم البراكماتية جون ((ديوي)) في مقالة له بعنـــوان (نمـــو البراكماتيـــة الأمريكيـــة) (The Development of American Pragmatism) مشيراً إلى أن البادي في عرض ذلك المصطلح هو (شارلز سندرس بيرس). على أن مفهومها أول ما ذكر عند السّفسطائين الأغريق، وهي النشاط الذي يبنى على أرضية من الشك، لكي يصل إلى الحقيقة، وعن طريق الحدس. وليس عن طريق التجربـــة التـــي قـــدّرها ((وليـــام جـــيمس عـــام ١٩٠٢)).(Tiercelo (c) 2005, P.78) ، ومصطلحها قد اعتمد عند معظم للفلاسفة الغربيين المحدثين امثـــال ((كـــانط)) وإنْ كانت مضامينه أخلاقية و (أيطيقية) ثُم على يد الفيلســـوف (مـــوريس بلونـــدلن) و (برغسون ت١٩٢١) وغيـــرهم.(Kant, non dated, P.60)، وتقـــدم أن (شـــارل ساندرز بورس) قد حددها بكونها نظرية في المنهج، بأنها مقال: جديد في المـــنهج، ولكنّ باحثين بعده قد عرفها ((بأنّها فلسفة الديمقراطية الأمريكية، ومنهم جون ديوي الذي قرّرها بكونها (الثورة الفلسفية الأولى، والعلمية على المثالية، وبأنّهـــا فلســـفة

عملية، وهي فلسفة الفلسفة الأمريكية، وهي أيضاً فلسفة النجاح والأثر اللذان يقومان على العقل والتجربة)).(Kant, non dated, P.62) .

وروافد البراكماتية فكرية، وعلمية، ودينية، واجتماعية، وسياسية، توطّدت أفكارها بكلّ تلك المناهج، وخرجت بمذهب أساسه الأفعال، والفاعليّة في الواقع المعاش والمعاينة لذلك الحال، وعدّ ذلك المذهب معياراً لكلّ حقيقة أيّاً كانت سبلها، فتبنتها الفلسفة الأمريكية التي انفتحت على معطيات التيار اللّيبرالي، متمثلة بالتطرف ببروز العديد من الفلسفات البراكماتية، بصفتها ليست فلسفة بقدر ما هي منهج للبحث والعمل، فنشأت البراكماتية أول مرّة في بريطانيا عام ١٨٧٨م، ثمّ تطوّرت ونشات بعدها في الولايات المتحدة الأمريكية على يد (شارل بيرس)، ورفيقه (وليام جيمس)، الذي اعلن رسمياً عن ميلادها، بتخليص الفلسفة بعامة، والميتافيزيقيا بخاصة من الفوضى العقلية، وتقدم القول : إنّها ليست فلسفة بَلْ هي منهجاً، للعمل، ومقال جديد في المنهج، وقد عرَفت الرأسمالية البراكماتية السياسية، والاقتصادية، وفي جمعها بَيْنَ النظرة التطورية للعالم ... وبَيْنَ النظرة الدينية له في طريق حلحلة المشاكل الأخلاقية، والعلائقية بين خليط الأديان في العالم بأسره والثقافات، وتباين الحضارات، والأجناس، والألوان، واللغات والطموحات السياسية، والاجتماعية عبر تبنيها للتجربة بصفتها معياراً للحقيقة للعمل الفاعل كمقياس لصدقها. في حقيقة الطرح، وأي كان مصدره، وقد مرّت بتطورات عديدة، في مفهوماتها، فقد عرفها قاموس ويبستر العالمي (Webster) بأنها : ((تيار فلسفي أنشاه (تشارلز بيرس Charts Senders Preirce)، (ووليام جيمس Willim James). بالدعوة إلى حقيقة كل المفهومات التي لا تثبت إلا بالتجربة العلمية)). كما عرفها المعجم الفلسفي بكوها ((مذهب يرى أن معيار صدق الآراء والأفكار إنما هو في قيمة عواقبها عملا،

وأن المعرفة أداة لخدمة مطالب الحياة، وأن صدق قضية ما هو كونها مفيدة والبراجماتي بوجه عام : وصف لكل من يهدف إلى النجاح، أو منفعة خاصة. فالبراكماتية فلسفة اتخذت من العمل والنفعية معياراً لها، وهي تعرض مدرسة فلسفية تؤكد على كون القيم، والعقائد، والمعايير الاجتماعية ينبغي أنْ تكتسب من وجه نظر علمية(الشويعر و العصيمي، ١٤٣٧هـ-١٤٣٨هـ، ص٨). فكان من روداها، والمنظرين لها، والمهذبين (وليم جيمس ١٩١٠-١٩٥٢م) الذي ساهم إسهاماً كبيراً في تنظيم المذهب أو المنهج البراكماتي، وإعادة صياغته، وتوسيع منطلقاته لكي يشمل الاعتقادات الدينية، فذكر أن البراكماتي لا يعنيه كيف تاتي الأفكار، والمعتقدات، ولكن يهمه أنْ يسأل عن صحة ما يذكره من أفكار، وصدق تلك المعتقدات ومدى صحة فكرة ما، ومدى الحاجة العملية لها، كما يترتب على ذلك صدق المعتقد فيما يترتب عليه من آثار ونتائج عملية فهو بذلك أراد أنْ تقف البراكماتية موقفاً وسطاً بَيْنَ المذهب التجريبي والعقلي، إذ رأى أنّ التجريبية شديد الوثوق بالوقائع المحسوسة، والمشاهدات، والمرئيات للأفعال، غير أنها تهمل القيم الأخلاقية، والدينية، والإنسان يحتاج إلى مطالب وأمور يفي بها المذهب العقلي، فوجد في ذلك، إنه ينبغي أنْ يقف موقفاً وسطاً، يحقق الإخلاص للواقع والتجربة ويعطي الإيمان بالقيم الروحيّة، ولا يتجافى عنها(الشويعر و العصيمي، ١٤٣٧هـ-١٤٣٨هـ، ص١٠)، ولهذا قام بالتمعن، وفحص الفلسفة البراكماتية على ضوء موضوعات الميتافيزيقيا القديمة فتبين له : أن حقيقتها : هي القيمة الفورية للفكر، وبذلك ينبغي أن ينتقل الناس في الفلسفة البراكماتية من السؤال عن ماهية الشيء، وحقيقته، إلى التساؤل عن قيمة العمل في الفكرة فهي صادقة ما دامت تحقق لنا نتائج عملية مضمونة(الشويعر و العصيمي، ١٤٣٧هـ-١٤٣٨هـ، ص١٠)، وعندما

نظر (جيمس) في المسألة الدينية عالجها من ناحية حاجات الإنسان، إذ ربطها بالجانب الشعوريّ للإنسان، والعاطفة الدينيّة، والعبرة لم تكن متصلة فقط بالطقوس، وما يناسبها من فرائض، بل العبرة يقيناً تدخل ضمن الرّوح، والديانة الشخصية للفرد، فعنده أن الدين أمور شخصيته، وليستْ لها صلة بالعمومية، لمسارات الاعتقادات، والديانات، فلا يهمه المعتقد، والأسس التي يبنى عليها، بل يهم جيمس النتائج التي يفضي اليها المعتقد الديني وصلته بالحياة، لأنَّ كلّ فرد يحيا على وفق مزاجه الديني ولهذا أقام المسألة الدينية على موقفين أو ركنين اساسيين وهما : الأوّل : حق المرء في الاعتقاد، ونوعه، إذ له الحرية في الاعتقاد لما يُريد، فضلاً عن سلوكه في صياغة اعتقاده على وفق المنهج الذي يراه، ويفضي ذلك إلى ما يرى من آراء(الأهواني، ١٩٧٣، ص٢٤٣)..

وثانياً : واعد جيمس الوجدان هو الأساس الرئيسي في الاعتقاد وتأثير الوازع الديني، فالوجدان، هي السّبيل الأمثل الذي يثبت بها الدين في نفوس الدين، وليس العقل؛ لأنه الوسيلة الصّادقة، والوحيدة، لتثبيت الاعتقاد، والدين في نفوس الناس، وما يعكسه من سلوك على نمط حياتهم، ومسيرتهم، والإقرار بوجوده، لأنّ ذلك يعود إلى الوجدان، والغريزة، والعقل يُعدّ ثانوياً في المسألة الدينية، لكون وظيفته ترتبط بقضايا التنظيم للعقيدة، والتنسيق لمفضياتها. وعَبْرَ ذينك الركنين، افترض جيمس، وجود عالم غير عالمه عند الإنسان، وذلك لا بُدّ أنْ يعود على الإنسان بالنفع، والسعادة، والراحة، وما يتلائم مع مسيرة الحياة الروحية، والسلوكية، وذلك ما قاله، ورآه في البراكماتية، بأنّ مبادئها تفتضي إلى أنْ يكون هناك إله يفرض حقيقة، وهو من شانه يبعث السّلوى، والهدوء والسّكينة في النفوس البشرية، وذلك ما يؤكد أنَّ جيمس لا يؤمن بوجود الله بصفته ألهاً، وإنَّما يؤمن، بكونه يحس أنّ الإنسان في

حاجة ماسة إلى الإيمان فقط، فالمسألة في رأيه مجرد ظاهرة إنسانيّة، المهم فيها تحقيق المنفعة في السّعادة للناس، لذلك قال ((إنه لا بُدَّ أن يوجد لأنني في حاجة ماسة إليه)) (إبراهيم، ١٩٦٧-١٩٩٦، ص٥٠).، لذلك جعل الصلاة من أبرز الأفعال الدينية، بلا مدافع تتطلب الاقتناع، وهي دليل على الإيمان، والاعتقاد، الذي ينبغي أنْ لا ينفصل عن الأفعال الدينية(إبراهيم، ١٩٦٧-١٩٩٦، ص٢٤٦). فالتجربة الدينية تُعدّ عند جيمس قضية عَبْر القول : ((الحكم على الشجرة عند وليم جيمس من خلال ما تنتجه من ثمار))، وذلك يدل على مسألة البحث عن الاثار، والنتائج فيما يحققه الأنفعال الديني ولذلك ننهي البحث في مطلبين موجزين عن الخبرة الدينية في الفلسفة البراكماتية عند جيمس.

المطلب الأوّل

بواعث الخبرة الدينيّة عند وليم جيمس ودواعيها

إذا كان الأمر في البحث قد اقترن ببواعث الخبرة محدّدة عند الفيلسوف (جيمس)، فماذا يُراد بالباعث الذي جمعناها على صيغة منتهى الجموع في بواعث : ومفردها الباعث الذي جذره قد اشتق من بعث، وهو في تركيبه يفضي إلى معنى واحد : وهو الإثارة(هارون ، بلا . ت ، ص٢٦٦ / بعث)، وهي في ثلاثة أصول : تقديم الشيء بَعْدَ معرفة لهُ، وذكره، ورسمه بتقصيه أو تمحيصه لأسبابه وإبقاء شيء منه(هارون ، بلا . ت ، مج١، ص٥٣-٥٥ / أثر). أمّا الخبرة : فهي في أصلين : الأوّل العلم، والثاني يدلّ على لينٍ ورخاوة(هارون ، بلا . ت ، مج٢، ص٢٣٩ / خبر). وتلك المفهومات قد تبناها أصحاب البراكماتية، ومتبنوها. فقد عرفوا الخبرة : ((بأنَّها موقف إشكالي يعترض الكائن الحيّ، ويبعث فيه رغبة البحث عنْ حلٍّ يسترد به تكيفه مع الوجود حوله)). فالخبرة لم تكن جامدة في المفهوم البراكماتي بما

تعني الخروج من دائرة المشاعر والأحاسيس، والانفعالات الفردية، بَلْ مثلث امتداداً إلى عالم الأشياء والموضوعات بإثارة الأحداث الخارجية، فعدّت بحثاً نشأ من التوازن بَيْنَ طاقات الإنسان من جهة، وبَيْنَ الظروف الحيوية التي تحيط به من جهة أخرى، حتى يصل ذلك التوازن إلى إشباع يكفل لصاحبه ضرباً من اللّذة بالرضا لما يراه، ويرغب به، ولهذا كانت الخبرة عند وليم جيمس قد مثلت مركزاً مهماً في فلسفته، أعطت سيرته بواعث مهمة في نشأة البراكماتية، لذا أكّد بشدة على مقولة الخبرة، مقترحاً منهج (التجربة الأصلية) لما تصوره من مساير حياته، وواقع مجتمعه الأمريكي الذي عرفه عبر أمور متعددة من سيرته الشخصية(عوض، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م، ص٦٨) في تصوره لواقعة على أنّ أساسه (عالم الخبرة الخالصة، بصفة أن الخبرة قد احتلت عنده مركزاً مهماً، وأساسياً في الوجود الإنساني، فلكي تستمر الحياة قائمة ينبغي أنْ تبقى تلك الخبرة فاعلة متصلة، ومستمرة، ومتلائمة مع البيئة، تلك الملائمة لا بُدّ أنْ يتكيف لها الكائن الحيّ إيجابياً، لا سلبياً، وبأيّ حالٍ من الأحوال : لأنّ البيئة تشكل الكائن، والكائن ينبغي أنْ يتكيف معها. ولعلّ بواعث البراكماتية واقع المجتمع الأمريكي الذي كان سائداً، وعلى مدى نجاح أفراده في التكيف مع الأحوال التي يعيشونها، ولهذا أطلقوا عليها تسميات عدّة منها الفلسفة العلمية، أو النفعية، أو الإجرائية، أو الأدائية أو الوظيفية، أو التجريبية، وكانت التسمية الأخير أكثر رواجاً واستخداماً عند الباحثين في المجتمع الأمريكي، آمنت تلك الفلسفة بالأسلوب التجريبي، وبالسبل العلمية السليمة، لأنها ترى أن مشكلات العالم بعامه، والإنسان بخاصة ينبغي أنْ يكون موضوع الدراسة، والاهتمام، والإصلاح الاجتماعي أمر ممكن توخيه. وقالوا إنَّ الخبرة الإنسانية داخلية وخارجية(الشويعر و العصيمي، ١٤٣٧هـ-١٤٣٨ه ، ص٣-٤) يمكن بها أن يعدل

الداخل عن طريق الخارج، فاكدوا على الجوانب الاجتماعية للطبيعة الإنسانية، وإمكانية تشكيل الإنسان واحواله بالتفاعل الواعي مع الآخرين(الشويعر و العصيمي، ١٤٣٧هـ-١٤٣٨ه، ص٤)، فالبراكماتية : إذا عُدّت مذهباً فلسفياً اجتماعياً : فإنّها تبنت حقيقة جملة التجربة الإنسانية في اعتمادها المعرفة آلة أو وظيفة في خدمة مطالب الحياة، لا في الفكر النظري البعيد عن واقع الحياة، وقد ساعدت عوامل اجتماعية في ظهورها مع أنها إحدى الفلسفات التي أغفلت المناهج العقلية، والنقلية، وتبنت مناهج الحس، والتجربة المادية ولعل من أهم العوامل التي ساعدت على بروزها ما يمكن إجماله بما يأتي:

أولا : ظهور نظرية التطوّر، والارتقاء التي نادى بها جارلس دارون (١٨٠٩-١٨٨٢م) (Darwin, Charles) والتي كان لها الأثر البالغ على الفكر الفلسفي، ومن بيْن ذلك مفكري الفلسفة البراكماتية، والتي أكد فيها دارون على قانون (البقاء للإصلاح)، وبذلك هيأ القول، ومهد للأرتباط الحقيقة الإنسانية بالمنفعة التي تؤدي في الحياة، فالإنسان يستخدم السبل العقلية لحفظ وجوده في الحياة. ويمكن له أن يستبدل كلّ وسيلة ينتفع بها في إدامة ذلك الوجود باعتماد السبل الناجحة والسليمة في مسعاه، وبذلك وجه نظر الفيلسوف جون ديوي (De Wru-John) (١٨٥٩-١٩٦٢م) إلى فكرة ((براجماتية الذرائع)) (كرم، ١٩٩٦م، ص٤١٤).

ثانياً : وتقدّم العلوم السيكولوجية، فقد تطوّرت نظريات علوم النفس، وتناولت كلّ ما يدعوه العقل في ضرورة توخي غايات معينة، ولذلك كان وليم جيمس أشهر مؤسسي البراكماتية عُدَّ من كبار علماء النفس الأمريكان إذ هو صاحب ((قانون المنفعة)) في علوم النفس.

ثالثاً : وبروز الحاجات الدينية في واقع حياة الغربيين ففي فرنسا مثلا : ظهر الجانب الديني من البراكماتية وبشدّة في نظرية (بيرو) التي تقول : ((إنَّ الاعتقاد في حدوث المعجزات يساعد على تحقيقها، وبالرغم من ذلك، كان معظم البراكماتيين ملحدين منهم جون ديويّ الذي تفنن بلحاده بإصدار (بيان الإنسانيين) (صالح، ١٤١٢هـ-١٩٩١م، ص٢٠).

رابعاً : والظروف الاجتماعية التي كانت سائدة حينذاك، إذ جاءت الفلسفة البراكماتية بكونها ثمرة من ثمار التفاعل بَيْنَ الأفكار التي حملها المهاجرون الأوربيون إلى أمريكا، وبَيْنَ أفكار البيئة الجديدة التي هاجروا إليها، إذ تبنى المهاجرون العمل، والكفاح من أجل البقاء، فبدأ التفكير بالعمل، فصارت النظريات الفكرية والمذاهب مجرد فروض للعمل تفحص وتمحص كلَّ ما ينتج عن المواقف العملية، قابلة للتغيير، اعتماداً لمتطلبات الواقع، فعرفت تلك النزعة أو الروح باسم البراكماتية، وهو اسم أطلق على الرّوح الأمريكية(الأهواني، ١٩٦٨م، ص٨٢).

فكان أوّل مَنْ صاغ مصطلح (البراكماتية هو ((تشارلز بيرس ١٨٣٩-١٩١٤م) في يناير١٨٦٨م، وعندها عُدَّ الأب الروحي للبراكماتية عُرفت باسمه، كما عُرف باسمها(فام، ١٩٩٨، ١٣١).

فبدأت البراكماتية بشارلس بيرس، تم وليم جيمس، بعدها جون ديوي. وكانت مسامات البراكماتية ومضامينها قد تبنت معايير، ومبادئ، المعرفة، والحقيقة، والأخلاق، والدين، فالمعرفة عند بيرس عامة، وعند جيمس، وديوي ذاتية، وهي معرفة ظنية، لكونها أداة للعمل المنتج، والحقيقة وهي مركز استقطاب النزعة البراكماتية وجوهرها، وهي ليست مطلقة، بل نسبية، أمّا الأخلاق، فهي تعتمد

الإنسان إذ يصنعها على وفق كفاحه، وترتبط بحقيقة وجوده، والدين، قد شمل كلَّ مسارات ومضامين البراكماتية، وبحسب مواقف مُريديها، ونزعاتهم، فتلك هي البواعث، والدواعي الاجتماعية التي مهدت، بَلْ ساعدت بشكل أوسع في بروز البراكماتية عند المفكر والفيلسوف وليم جيمس، أمّا البواعث والدواعيُ، فهي الفردية، والشخصية التي عاشها وليم جيمس، وتربى عليها. من بداية حياته، وحتى وفاته، والتي يمكن استنباطها عَبْر سيرته الذاتية، والتي يمكن إجمالها بما يأتي:

أوّلاً : نشأة وليم جيمس، وما أسفرت عنه من جوانب ثقافيّة ومعرفية ودينية : قبل التحدث عن النشأة، من الطبيعي الإشارة إلى الولادة، فقد ولد ذلك الفيلسوف البراكماتي في مدينة (نيويورك) اليهودية الأمريكية في التسمية بشهر يناير عام ١٨٤٢م، من أبوين أمريكيين، فكان جدّه لأبيه إيرلندي الأصل ينتمي إلى المذهب الكالفيثي المسيحي، هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٧٩٨م، واكتسب الغنى المادي باستثمار لأمواله في أرض قناة بنما، وكان أبو وليم (جيمس) أكبر أخوته، اكتسب أحد أخوته المسمى (هنري) حظاً عالياً من الشهرة والذكر في الأوساط الفكرية، إذ كان من اشهر الأدباء في كتابة الرواية الأمريكيين .(The Encyclopedia of Philosophy, P. 240) (أكرم، ١٩٨٣م، ص ٦٠).، غير أنَّ والد وليم حدث في حياته حريق اقتضى الأمر به إلى بتر إحدى ساقيه، ممّا ترك في نفسه جُرحاً عميقاً(الشنيطي، ١٩٥٧، ص٩)، ممّا أنعكس على اهتمامه بالقضايا الفلسفية، والتأملات الدينية، فكان لتلك المسالك نزعة اهتمام بالاتجاه الصّوفي في هوايته بالرحيل، والسّفر إلى العديد من الدول الغربية، فزار لندن، وباريس، وبوردو(أمين، (لا.ت)، ص٣٧)، فكان لذا المسار الإراديّ للسفر الأثر على الأبن (وليم) لاكتساب

المهارات اللّغوية، فضلاً عن النظرة العالمية المتعددة للحياة بتعدد أنواع البشر، أنعكس لاحقاً على إيمانه بمذهب التعدد الفكريّ، والكثرة في التنوع الاعتقادي، ومعلوم أنَّ لحياة الأب جيمس القلقة بسبب ما يعانيه من الاعتلال البدني وتململه الروّحي، وإنصرافه إلى التصوف والعزلة، والترحال والسفر ما بَيْن أمريكا، والعديد من المدن الأوربية، الأثر السّلبي على دراسة الأبن وليم، في اضطراب دراسته، وكذلك بقية أبناء جيمس، بسبب عدم الاستقرار، والتنقل المستمر، وكان لوليم من تلك الأسباب النّصيب العالي، وحصة الأسد. مع أنَّ جدّه من أبيه (جيمس) كان من الذين زخرت بهم أمريكا في بداية نهضتها، لكونه كان وافر الحظ في الاطلاع على الآداب الغربية ناهيك عن امتلاكه لثقافة دينية واسعة إذ دَرَس اللاهوت بجامعة (Princeton)، فانتهى به واقع حالة في ذلك الأمر إلى الأقبال على تعاليم الفيلسوف السّودي (Sweden borg)؛ لأن أحد أصدقاء الجدّ ساعده على اقتناء مجموعة من كتب الفيلسوف الصوفي التي حوت الكثير من التأملات، والخواطر، فياضة بالحكم والمواعظ(أمين، (لا.ت)، ص١٠). لذلك عُدَّ ذلك الجدّ لوليم قسيساً بروتستانتيّاً من اتباع ذلك الفيلسوف السويديّ. وكلَّ تلك الأحوال في مسارات النشأة لوليم في أسرته هيأت له مُناخاً ثقافياً عوضه عمّا حدث له من انقطاع، واضطراب، وقلق في دراسته، والتي توافقت في انتقال أسرته، وترحالها ما بَيْنَ نيويورك، وبولونيا، وجنيف إذا إتاحت تلك الرحلات، والتنقلات في (١)إقامة علاقات صداقة مع العديد من المفكرين، والأدباء، والفلاسفة في أمريكا والقارة الأوربية، ومن بين أولئك (كارليل و Ralph، و Wold، و Emarson، و Oliver، و Wendell، Holmes، وكلّ أولئك قد حفزوا

حركة التطور الفكري العقلاني، في أمريكا، وكان مِنْ بينهم مَنْ التقى بهم جيمس.(The Encyclopedia of Philosophy, P. 240)، فتعرف على فكرهم وليم. (٢) وكلّ تلك الأجواء التي حفلت بالتعدد الفكري، والنوازع الدينية، والثقافية، لم تترك أثرها على عقائدية أسرة والد وليم، فقد كان وليم حُرّاً في القبول، أو الرفض، ورفضه للتزمت وعدم تفيده بالأفكار التي آمن بها والده، وأصدقائه(أمين، (لا.ت)، ص١٠). (٣) وأما تعلم وليم الرسمي، فقد كان بشكل غير منتظم تعوزه الاستمرار في المؤسسات التي انتمى اليها، لأنقطاعه في متابعة ترحال أُسرته. ففي عام ١٨٥٥ حتى عام ١٨٦١م كان وليم برفقة أخيه هنري في مدارس انجلترا، وفرنسا، وألمانيا. ممّا دعا ولدها إلى القول في معرفة ولديه إنّهما قد تشربا بمعرفة الفرنسية، والألمانية(أمين، (لا.ت)، ص١٠). وفي أثناء إقامة وليم في أوربا أنصب اهتمامه في التقييم بين العلوم الطبيعية، والفن، متنقلاً بيّن معارض الفنون لمدّة من الزمن، مُفكراً في أن يصبح رساماً وبذلك ما في وسعه لتحقيق ما يصبوا اليه، فدرس على يد الفنان (وليام موريس) إذ كان صديقه الحميم، فنصحه بأنّ فن التصوير الزّيتي شديد الميل لهُ، وهو غير مناسب لمساعيه، فعزل عنه إلى العلوم الطبيعية(أمين، لا . ت ، ص٣٧٠)، وفي العام ١٨٦١، التحق وليم بمدرسة لورانس العلمية التابعة لجامعة هارفرد، ولم يواصل الدراسة بها إذ تركها ليدرس الطّب في مدرسة الطب بجامعة هارفارد نفسها في عام ١٨٦٤م، بعدها اعتل وفي نوفمبر عام ١٨٦٨م درس الطب في كمبرج بعد غيبة دامت ثمانية عشر شهراً في ألمانيا، بعدها حصل على البكالوريوس في علم التشريع، فمارس تدريس علم التشريح والفسيولوجي إذ عيُن مدراساً في جامعة هارفارد

في عام ١٨٧٣م وقد جاءت معرفته بعلم النفس متأخرة، وبعدها اتجه صوب مشكلات الفلسفة والدين، ولكن زواجه في عام ١٨٦٨ أثر تأثيراً إيجابياً على حياته، فقد تحسنت صحته، وصار يدرس في جامعة هارفارد، وتوسعت سبل عطاءاته، ونشر مجموعة من الكتب لعللَّ من أهمها، إرادة الاعتقاد، وظهر عام ١٨٩٧ وخلود النفس عام ١٨٩٨م، وأحاديث إلى المعلمين في علم النفس في بعض المثل للحياة في عام ١٨٩٨، وتنوع التجربة الدينية، والذي صدر في عام ١٩٠٢م، كل تلك الاضطرابات والتأرجح الثقافي والمعرفي والفكري دعته إلى الاضطراب والقلق، لأنَّ موقفه البراكماتي من الدين اصطبغ بتجربته الدينية الشخصية الفردية المعقدة في التطلعات المعرفية ويُعدّ كتابه ((تنوع التجربة الدينية)) (احمد، ٢٠٠٤م، ص٢٩-٣٠ وما بعدها)، غوصاً في اعماق الحياة الدينية الباطنية، وكشفاً لحجبها، متأثراً بما عرفه في دراسته لعلم النفس، وقد برز في كتابه المذكور، اتجاهه الواضح في تصديه للمشكلات الفلسفية الخالصة(احمد، ٢٠٠٤م، ص٣١ وما بعدها)، فيما تقدم يمكن القول : إن الحياة الفردية لوليام جيمس قد مثلت المنعطف الشخصي المضطرب، لبداية البراكماتية، واستقرارها، لأنّها قد رُفدت بمبدئ مجموعيّ انفرادي عمليّ للنازحين الأوروبيين، رفده وليام بحياته المرحلية في الفكر البراكماتي في منحيين : منحنى التهيؤ والاستعداد، وما يتبعهما من قلق نفسيّ، واضطراب فكريّ، وتردّد، من منحنى الاستقرار، والخلق، والوصول إلى ما يريده في توطين الفلسفة البراكماتية النفعيّة الدينيّة المعاصرة.

المطلب الثّاني

المبادئ العامة للفلسفة البراكماتية ومقوماتها عند وليام جيمس

الذي يتأمل الفكر الفلسفي لبراكماتية بعامة يرى أنّه قد حوى جملة من المبادئ تصوّرها الفلاسفة الذين تبنوا مساراته مع أنه يفضي إلى منطلقات، وأسس يشتركون فيها لعلّ من أهمها :

١- تُعدّ الفلسفة البراكماتية أنَّ الوصول إلى حقيقة وجود الكون أمر مستحيل، وإذا لا يوجد دليل على ثبوت الحقائق، وعدم تغيرها.

٢- ولا يتمُّ معرفة الموجودات، ومعانيها الحقيقية إلّا بالتجريب، لذا يمكن للإنسان التحكم بتجديد مستقبله، بتبني الخبرة الإنسانية لكي يتهيأ السّيطرة على البيئة، وتسخيرها لمنفعته.

٣- وإنَّ القيم، والأعراف مع تباين البيئات، وتنوعها نسبيّة وليست ثابتة أو مطلقة، إذ إنَّها تؤخذ بمعاير المنافع، أو لإشباع حاجات الإنسان الضروريّة، والملحة لأدامة وجوده.

٤- ولعل السّبل العلمية هي أفضل، والأساليب، والوسائل، وأنجعها لاختيار الأفكار، ومعالجة مساراتها. وأَنّ الأساليب الديمقراطية هي أساليب عمل، وحياة بتبني العقول، والسّعي الأمثل لاستخدامها.

٥- ولذلك رأى البراكماتيون، إنّ العقول ثمار نشاطات إيجابية وليست سلبية، فهي لاتفضي إلى المعرفة، وتستقبلها، بل تعالجها على وفق تفاعلها مع البيئة، بما تراه من وسائل ضامنة.

٦- وترى الفلسفة البراكماتية أنَّ المجتمعات الإنسانية بعامة متغيرة في سبل عيش الإنسان فيها، وبمساهمته الفاعلة، والمبدعة الخلاقة يطورها، ويبينها، ويتمكن من

حلّ ما يعتري سعيه للأفضل من مشكلات، ومصاعب، ولهذا بعض مفكري تلك الفلسفة رأى أن المبادئ الرئيسة يمكن حصرها في ديمومة التغيير واستمراريته، ونسبية القيم، تعتمد الطبيعة الاجتماعية والبايولوجيّة للإنسان، والديمقراطية لها أهمية في حياته، تبنى على الذكاء الناقد لهُ في جميع مسالك حياته(الشويعر و العصيمي، ١٤٣٧هـ-١٤٣٨ه ، ص١٤). ولذلك كانت أسس البراكماتية تبنت النظر على مفهومات الوجود الكوني، وطبيعة الإنسان. والتربية، والمعرفة، والقيم على تنوعها، اجتماعية، وأخلاقية، ودينية، ولم تترك حقيقة الأشياء بصفتها وليدة التفاعل الإنساني مع بيئته، وذلك ما يحتاج إلى إطالة رأينا عدم الإفاضة فيها، لأنه يعتمد المدركات العقلية لكلّ فرد، قام وليام جيمس بتهذيبها، وإعادة صياغتها على ما ذكرناه، وتوسيع نطاقاتها شمل بها الاعتقادات الدينية مع تنوعها، واختلافها متبنياً أنّ الذي يؤمن بالبراكماتية، لا يفيده كيف تأتي الأفكار والمعتقدات، بلْ يفترض أنْ يسأل عن صحة تلك الأفكار، وصدق المعتقدات، فيقف موقفاً وسطاً.

وإذا ما عرفنا أنَّ الفلسفة البراكماتية عُدّت رافداً من روافد التيارات الماديّة في معانيها الواسعة، وهي ليست وليدة الحاضر بل هي فلسفة نفعيّة ذات منشأ أنكليزي، جذوره قديمة ترجع إلى العصر الروماني الإغريقي(الشويعر و العصيمي، ١٤٣٧هـ-١٤٣٨ه ، ص١٧ وما بعدها)، لهذا لم يكن وليام جيمس مبتكراً لها، إلّا من خلال إطلاعه على أفكار مَنْ سبقه في التوجيه إلى مساراتها، ومقومات منهجها، وذلك ما ذكره الفيلسوف (الانكليزي الشهير برتراند رسل)، إذ قال : أنّه يمكن تمييز ثلاثة عناصر، اجتمعت كلّها على تشكيل فلسفة وليم جيمس، وهي دراسته لعلم وظائف الأعضاء، والتي كانت غنية بالآثار الفلسفية، فجمع بين المذاقين، المادي،

والعلمي، وعلى حدَّ سواء، وسيطر عليها وليام بمعرفته في علم النفس، وذلك مثلـــه العنصر الأول، أما الثاني : فهو جنوحه الصوفي والديني الذي أخذه عن أبيه، وأخيه هنري، ناهيك عن اهتماماته بالروحانيات والثالث : هو ما اتسم به وليام بضمير (نيو انغلند) في الخير الجاد للقضاء على روح التزمت الذي لم يخل منه، والاستعاضـــة عنه بأنواع من التسامح والمرونة الفكرية فضلاً عن مقومات، سلكت مـــنهج ولـــيم، وفلسفته البراكماتية(الشويعر و العصيمي، ١٤٣٧هـــ-١٤٣٨ه، ص٤٦ وما بعدها).

والتي لا يمكن إلّا أجمالها بما يأتي لسعة الخوف في مضامينها.

أولاً : الطابع الحيويّ المتغير في أمريكا . وبخاصة في كون الناس فيه من مشارب إنسانية عدّة، وذلك بطبيعة الحال يؤدي إلى تنوع منابته الثقافيـــة، وتعـــدّدها، لذلك رفض وليم التيارات المثالية التقليدية، ولاسيما عندما احتدم الصراع بين تياري العقلية، والتجريبية بالهجوم المتبادل.

وثانياً : المبدأ البراكماتي تشارلز ساندرس بيرس، والنادي الميتافيزيقي. فبمبدأ ذلـــك الفيلسوف عالم المنطق، والرياضيات كان أوّل من أدخال لفـــظ (براكماتيـــك Pragmatic) في الفلسفة بمقالة (كيف نوضح أفكارنا؟) how to make out ideas عن مقال آخر له بعنوان (تبيت الاعتقاد). فمبدأ تشارلس بيرس في مبدأ البراكماتي : قرّر أنّ المعنى لكل إصطلاح أو فكرة حتى وإنْ كانت غير حسية، لها أثر في الاصلاح وفي المحسوسات بالتجربة والمشاهدة، وذلك المبدأ ظل مهملا عشرين سنة إلى أن بينه (وليم) في حديث ألقاه امام الرابطة البروفيسور (Howism) الفلسفية في جامعة كاليفورنيا، وطبقة، ووظفه فـــي المسار الديني(أحمد، ٢٠٠٤ ، ص٤٦-٤٧).

ثالثاً : علم النفس : لقد كان وليم مدرساً فيما تقوم لعلم الفسيولوجيا بجامعة هارفارد، غير أنه الخوف في مساره الفكري إلى علم النفس، بسبل، ووسائل العلوم التجريبية، إذ عدّه علماً فلسفياً أو علم الفلسفة العقلية(الشنيطي، ١٩٦٤ ، ص١٤)، فالعقل ساكن بغير حركة وكأنّه لوحة بيضاء، ترسم عليه الانطباعات، فتتجاذب، ولا قدرة له فيما يتلقاه، إلا أنْ يسجله في صفحته فمبادئ علم النفس أو أصوله، عند وليم عبارة عن مجموعة تفاصيل وصفية، عبارة عن تجميع فلسفي، ويمكن القول : أنّ علم النفس عند وليام، عندما أصدر كتابه (أصول علم النفس) كانت هناك نظرة عامة قد تحددت ملامحها في ذهنه، اتصلت بالمعرفة الإنسانية، وهي عدم اقتصار فكرة الكتاب على إرساء دعائم علم النفس، وإنّما قد امتدت إلى موقف فلسفي، تمثل، بمقومات البراكماتية التي راها(الشنيطي ، ١٩٦٤م، ص٣٤٥).

رابعاً : الفلسفة الانجليزية : وهذا يمكن معرفته عبر معرفة العلاقة الوثيقة بما طرحه الفيلسوف الانجليزي جون ستيورات مل في جزئية : الأول : يرتبط بالفلسفة التجريبية وعلاقتها بالبراكماتية، والثاني : يتصل بالتيار النفعي الانجليزي فالتجربة عند وليم تعني الواقع الملموس نفسه، بتعدده، وتنوعه بتباين جوانبه، واختلاف عناصره ، ولاسيما التيار النفعي الذي قرّره وليم في كتابه البراكماتية قائلاً : (تتفق البراكماتية مع مذهب الأسمية في رفض المفهومات المجردة، والتعلق الشخصي مع المذهب النفعي في توكيدها الجوانب العلمية) (الطويل، ١٩٥٣م، ص٢٦٠).

خامساً : الدين : يُعدّ الدين، أو التجربة الدينية من أهم أسس منطلقاته الفكرية في فلسفته البراكماتية. والتي بينت مدى التطرف الذي بلغته البراكماتية في قبولها

لجوانب من المفهومات التي أساسها المنفعة، وفائدتها التي حققتها للإنسان، بغض النظر عن الحقيقة الأصلية لتلك المفهومات، ولعل تربية وليم الدينية، جعلته يهتم بالدين، ولكن ليس على ما رآه، والده، أو على ما كان سائداً، ولكنْ في نظرة وليم البراكماتية.

الخاتمة

لقد شهد القرن الثامن عشر في أوروبا، دفعة فكرية شديدة على يد فلاسفة التنوير، وبخاصة الفرنسيين، بعده جاء القرن التاسع عشر ليقدّم دفعة اخرى، كانت في فكرة الرومانسية الألمانية. وفي منتصف القرن التاسع عشر انتعشت الفلسفة، في التلويح بمبادئ جديدة، رافضة التقاليد الأوروبية، والأكاديمية التي كانت سائدة، وفي غمرة ذلك الانتعاش الفلسفي، ظهر، وطرح على سبل الآفاق الفكرية، مذهب فلسفي فكري، نسب إلى الأرض الجديدة، وهو المذهب العملي البراكماتي. وبخاصة الفكري الفلسفي والديني الذي عَبّر عن الثقافة الأمريكية المعاصرة، التي ركزت على المنفعة في الأفكار، والنظريات، إذ النتيجة والنجاح، هما الحكمين الفاصلين في قياس أهمية الأفكار، ومدى نفعها للإنسان، والنتائج التي تسفر عنها، وقد توصلنا في ه ذا البحث إلى ما يمكن عرضه في ما يأتي:

١- إنّ وليام جيمس قد دعا إلى فلسفة البراكماتية، نادت بتجربة أصيلة أمريكية اختلفت عن التجربة الانكليزية التي بدأت فيها الفكرة. فَعُدّ مغيراً لواقع أفراد مجتمعه، فأهم بالشخصية، وطلب الحرية في التفكير والحياة، والعمل على وفق عدم التزمت، والسير على منهج التسامح بين الأفراد.

٢- والنظر إلى البيئة، ولاسيّما في السلوك الديني إذ جمع وليام بَيْنَ السّعي والجدّ الديني العميق، والصوفي متأثراً بنشأته، وأسرته. إذ كان للدين صدى واسع في

حياته، وبالنتيجة لطابع فلسفته العملية، فدراسته للدين انبثقت من دراساته السيكولوجية، ولم تكن قد بنيت على دراسة رجل دين أو متعلم، ودارس تاريخ الأديان، فحاول تطبيق المنهج البراكماتي على أسس التجربة الدينية.

٣- ولذلك رأى جيمس في براكماتية، إن لكلّ شخص حقّ مطلق في الاعتقاد، والإيمان، بسبيلين : العقل، والوجدان، إذ الأول يعتمد على الاعتقاد، بطرائق أخرى نحو الإرادة، أو الراغبة أو الوجدان، فضلاً عن عوامل الاختيار الذي يُحدّد به الاعتقاد وهذا يعني أنّ الطبيعة غير العقلية تؤثر بشكل واضح في معظم الآراء، والأفكار، والمعتقدات، وقد رفض فصل الإرادة والعقل عن العاطفة، لأنّ لقيمة الاعتقاد الديني تتوقف على ما يحققه من نتائج عملية سلوك الفرد، فالنتائج التي يحققها الدين ليست آنية، بَلْ هي مستقبلية تعطي للحياة صبغة من التفاؤل، والطمأنينة، في مثل فكرة الإله التي تعطي الأمل، مما يؤدي إلى تغير في مجرى الحياة لكلّ إنسان .

٤- ولقد جعل وليم في براكماتية : أنّ الاعتقاد ينبغي أن يكون مرحلة تسبق ما يعتقد به؛ لأنّ كلّ فعل مهما كان نوعه، لا يمكن أنْ يتحقق إلا إذا كان مسبوقاً، بالاعتقاد أنه يستحق، أمّا إذا خضع لشك، أو تردد، فإنه سيكون من الصعب تحقيقه، ولهذا جعل من الدين يعتمد على جوهريين في الوجود : الأول " أن خير الموجودات هو الأكثر أبديّة وأعمها مدلولاً، وأفضلها بقاءً. والثاني : الخير لنا في حياتنا الدنيوية، وفي الآخرة أن نؤمن بصدق الأولى الدنيوية التي تقول : بوجود قوّة كاملة، وسرمديّة البقاء، وهي أصل نشوء الكون، لذلك كان وليم في آرائه الكثير من الغموض والإبهام مما يعد في أن آرائه المتناقضة تجعله في فكره محض تلاعب، وعدم وضوح، مع أنه (١) قد نجح في تبيين وتوضيح

الرّوح العمليّة التي لا تتنافى مع العقائد الدينية مع أنه مشوش في فكره الاعتقادي. (٢) كما نجح في أنه وجد للإيمان بالله مكان طبيعي في النفوس مع وجود اضطراب تلك النفوس حتى تصل إلى الإدراك فتحس بالهدوء والطمأنينة مع أنه لم يؤمن بسماوية الأديان، وكونها اجتهاد إنساني يدعو إلى إصلاح مسارات الناس. (٣) ولتأثره بواقع أسرته قد نجح في الأقرار بأنّ حياة التدين أفضل وأسمى من جميع أنواع الحياة في الدنيا، إذ تقتل روح التشاؤم، وتملأ النفوس ثقة، وأملاً في السعي الأجود للمنافع، فتجعل منها جهاد حلو المذاق فتجعل من الوجود في العالم يستحق أن يعيش فيه الناس ومع ذلك فأن هناك العديد من المساوئ للبراكماتية بعامة، ومنها سلوكية، وليم جيمس المضطربة منها اللاأخلاقية مع تقيدها بالأمانة والصدق في بعض الفضائل في نحو الانضباط في السعي، والدقة في العمل ومراعاة المواعيد، وكذلك الانحرافات السلوكية في مثل تجارة المخدرات، وغسيل الأموال باقتناء الحاجات الكمالية، وفتح الباب على مصراعيه للصراعات حول القيم والأعراف.

المصادر

القرآن الكريم

١. إبراهيم، زكريا ، (١٩٦٧-١٩٩٦): دراسات في الفلسفة المعاصرة، مكتبة مصر، القاهرة.

٢. أبو النقاء، الكفوي القريمي و الحسيني، أيوب بن موسى (ت١٠٩٤هـ)، (١٤٣٢ه/٢٠١١م) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية : تحقيق د. عدنان درويش ومحمد الحصري مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٢.

٣. احمد، أم كلثوم يوسف إبراهيم ، (٢٠٠٤م): براجماتية وليم جيمس، رسالة ماجستير، جامعة الخرطوم، كلية الآداب، شعبة الفلسفة.

٤. أكرم، سمير، ترجمة (١٩٨٣): الموسوعة الفلسفية، إعداد لجنة من العلماء والأكاديميين السوفيت بإشراف م. روزنتال. وب : بودين، دار الطليعة، بيروت، ط٦، ١٩٨٣م.

٥. أمين، هنري ، ترجمة (لا .ت): هنري توماس، إعلام الفلاسفة، كيف نفهمهم؟ دار النهضة العربية، القاهرة.

٦. الأهواني، احمد فؤاد ، (١٩٨٦م): جون ديوي، دار المعارف سلسلة النوابغ، القاهرة.

٧. البطل، سفيان، ترجمة وتصويب (بلا ت): مركز نماء للبحوث، والدراسات : أوراق مترجمة ط طبيعة التجربة الدينية في فلسفة وليام جيمس، لشولبهافات بوريراكو شاروين Dr. Cholbhavat Borirakucharoen .

٨. بوترو، إيميل، (١٩٧٣) : العلم والدين، في الفلسفة المعاصرة، ترجمة احمد فؤاد الأهواني، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، (لا.ط).

٩. تونسي، نصر الدين حققه وعلق عليه ، (٢٠٠٧): الجرجاني : علي بن محمد بن علي الحسني (ت٨١٦هـ)، كتاب التعريفات، الدراسة، القاهرة، ط١.

١٠. ثويني، حميد آدم ، (٢٠١٥): بحوث إسلامية وقرآنية، مكتب النور للطباعة والنشر والتوزيع، رقم الإبداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٥٢٦).

١١. داوودي، عدنان، تحقيق ، (١٤٢٢ه/٢٠١١م): الراغب الاصفهاني : الحسين بن محمد بن المفضل (ت في حدود ٤٢٥هـ) : مفردات ألفاظ القرآن ، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط٥.

١٢. الزمخشريّ، جار الله ابو القاسم محمود بن عمر (ت٥٣٨هـ)، (١٩٨٥م)، أساس البلاغة، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ج٢.

١٣. الشنيطي، محمد فتحي، ترجمة (١٩٦٤م): هربرت شنيدر، تاريخ الفلسفة الأمريكية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

١٤. الشويعر، رنا بنت عبد اللطيف و العصيمي، سهام بنت سليمان، (١٤٣٧هـ-١٤٣٨ه): الفلسفة البراجماتية، بحث ماجستير أصول التربية، وزارة التعليم، جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية، كلية العلوم الاجتماعية، الفصل الدراسي الأول للعامين.

١٥. صالح، سعد، (١٤١٢ه – ١٩٩١م): التّجربة الدينية في الفلسفة البراكماتية بحث في مجلة كلية أصول الدين، بالزقازيق، جامعة الأزهر، العدد (٣).

١٦. الطويل، توفيق ، (١٩٥٣م): مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

١٧. عوض، شبيّر محمد خضر، (١٤٣١- ٢٠١٠م): دراسة ناقدة للفلسفة البراكماتية في ضوء المعايير الإسلامية، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، عمادة الدراسات العليا، كلية التربية، قسم أصول التربية الإسلامية.

١٨. فام، يعقوب، (١٩٩٨): البراكماتية، الهيئة العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثاني، القاهرة.

١٩. فتحي، الشنيطي محمد و جيمس، ليم (١٩٥٧): مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة.

٢٠. كرم، يوسف، (١٩٩٦م) : تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط٥.

٢١. مدكور، د. إبـــراهيم، تصـــدير رئـــيس المجمـــع (١٩٨٩م): مجمـــع اللغـــة العربية/القاهرة : المعجم الوجيز، مطابع شـــركة الإعلانـــات الشـــرقية، دار التحرير للطبع والنشر، جمهورية مصر العربية.

٢٢. نهر، هادي، (١٩٨٨-١٩٨٩م) : محاضرات في التصرف : مكتـــب حـــداد، بغداد.

٢٣. هارون، عبد السلام محمد تحقيق وضبط (لا . ت): ابن فارس : أبو الحســـين احمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـــ) : معجم مقاييس اللغـــة، دار الفكـــر، (لا.م)، مج٢.

24. David, Walff,(1997) Psychology of Religion New York, John wikyan Sone Ins.

25. Farer , Marvin, (1950): Laativite Philosophique contemporatitc en france aux etates unis puf, Paris.

26. Kant, Cf. , (non dated): Critiqre de La raison Pure trad. J. Barni, Flammayion Paris (sd).

27. The Encyclopedia of Philosophy.

28. Tiercelo (c), CF., (2005) : Le doute en question Parades Pagmatistes au defi Septique L'tclat Paris.

29. William, James, (1890): The Principles of Psychology 2 Vol., New York : Henry Holt and Co.

30. William, James,(1958): The Varieties of Religious Experience : A Studying Human Nature New York : The Modern Library.